

التوازن

أما بعد: فيا عباد الله، اتقوا الله حق التقوى، واذكروا على الدوام وقوفكم بين يديه في يوم تشخص فيه الأبصار.

أيها المسلمون، حين تستحکم الآفات وتستشري العِلل وتكثر الأدواء تضطرب عند ذاك الألباب وتلتاث العقول وتحار الأفهام، فتتأى بالمرء عن سلوك الجادة وتحيد به عن الصراط، وتحدث في نظام الحياة فساداً عريضاً، حيث يشيع الخلل ويفشو العوج وتختل الموازين وتنعكس الأمور، فيقدم المؤخر ويؤخر المقدم، وتصغر العظام وتعظم الصغائر، وتحفظ الفروع وتضيع الأصول. وإن في دنيا الواقع - يا عباد الله - من صور هذا الداء القديم ما لا يكاد يُحصى من الصور، فترى في الناس من يجتهد في ألوان القربات ليله ونهاره ليزدلف بها إلى مولاه ويحظى عنده بالدرجات العلى والنعيم المقيم، لكنه يقرن ذلك بما يُفسد عليه جدّه ونصبه، ويُبسط عمله واجتهاده، حين يشرك بالله غيره بدعاء أو باستعانة أو باستغاثة أو بذبح أو بندرٍ أو بصرفٍ أي نوعٍ من أنواع العبادة التي هي حقٌّ خالص لله، لا يجوز صرفُ شيءٍ منه لغيره سبحانه، وحين يأتي كاهناً أو عرافاً فيسأله ويصدقّه، وحين يعلّق تيممةً أو ودعة يستدفع بها بزعمه الضرّ عن نفسه أو أهله وولده، مع أن الله تعالى قد بيّن لعباده في كتابه بواضح البيان أنّ عاقبة هذا الإشراك هو حبوط العمل وفساده، وعدم انتفاع عامله به في الآخرة، وتحريمُ الجنة عليه، وجعل مأواه النار، فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: 65]، وقال عز اسمه: ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: 88]، وقال عز وجل: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: 72]، وفي صحيح السنة أيضاً من البيان النبوي الرفيع لمآل هذا الأمر ما لا مزيد عليه، فقد أخرج الإمام أحمد في مسنده والحاكم في مستدرکه بإسناد صحيح عن أبي هريرة رضي الله

عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((من أتى عرفاً أو كاهناً وصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ)) [1]، وأخرج الإمام أحمد في مسنده والحاكم في مستدرکه أيضاً بإسناد صحيح عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((من علق تيممة فقد أشرك)) [2].

ومن ذلك أن ترى بعض من يُعنى بإقامة حروف القرآن وتجويدِها وتحسين الصوت بالتلاوة يضيّع حدوده، ويُهمل العمل بما أنزل الله فيه، ويُغمضُ الأجنانَ عن تدبّر معانيه والتأثر بعظاته والاعتبار بقصصه وأمثاله.

ومن الناس من يحتز من رشاش النجاسات أن يصيب ثيابه شيءٌ منها لكنّه لا يتوقى من غيبة أو نيممة أو قول زور، ومن يُكثر من الصدقات لكنّه لا يبالي بمعاملات الربا ولا يتورّع عن مالٍ حرام، ومن يتهجّد بالليل والناسُ نيام لكنّه يؤخّر الصلاة المكتوبة عن وقتها، ومن يصوم بالنهار لكنّه يؤذي الجيرانَ ويتعدى على حقوقهم ويستطيل في أعراضهم، حتى تكون جبرته عليهم همّاً ثقيلاً وشرّاً مستطيراً وبلاءً عظيماً، ومن يبزّ معارفه وعُشراءه بإقامة أوثق العلائق معهم لكنّه يعقّ والديه وإخوانه، ويقطع رحمه، ويتبرأ من قرابته وأهل بيته، ومن يجود على الفقير البعيد لكنّه يدع أهل بيته عالّةً يتكفّفون الناس، أو يضيّق عليهم في النفقة الواجبة فلا يعطيهم ما يكفيهم بالمعروف، ومن يصون لباسه ومركوبه وفراشه عن الأدناس والأقذار لكنّه لا يحفظ سمعه وبصره عن التلوّث بأرجاس الحرام، ومن يطبع في صغار الأمور دون كبارها، وفي ما تخفّ عليه مؤنّته دون ما عليه فيه مشقة، قال العلامة الحافظ ابن الجوزي رحمه الله وهو من علماء القرن السادس، قال: "وفي الناس من هذه الفنون . أي: المتعلقة بحفظ الفروع وتضييع الأصول . مما رأيناه عجائب يطول ذكرها".

عبادَ الله، إنه لا ريب أنّ مبعثَ هذا الانحرافِ ومصدرَ هذا العوجِ إنما هو الخضوع لسلطان العادات، والإذعانُ لهيمنة الأعراف، بعيداً عن أنوار الوحيين، قصيماً عن ضوابط التنزيلين، وكذا اتباع الهوى بغير هدًى من الله، وفشو الجهل بدين الله، وقلة الناصح وندرة المعين.

ألا وإن المخرج من كلِّ أولئك . أيها الإخوة . لا يكون إلا بدواء العلم والعمل . أما العلم فلأنه يقف صاحبه على القواعد والأصول والأسس التي تُبني عليها الفروع، وتقوم عليها الجزئيات، ويُنشئ له فكراً منظماً منضبطاً، يضع الأشياء في مواضعها، ويعرف للأعمال مراتبها

ومنازلها. وأما العملُ فلائته يقع صحيحاً مُوافقاً لما شرعه الله، ماضياً على نهج رسول الله ﷺ، سعيداً بالقبول، مبلّغاً كلّ مأمول، كما أن مخالفة الهوى والاجتهاد في ضبط الأعراف والعادات بضوابط الشرع، كلُّ أولئك مما يُرجى أن يُستصلح به هذا الانحراف، ويقام به هذا العوج، ويثوب به المسلمُ إلى طريق دينه القويم.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ

مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بغيرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص:50].

نفعي الله وإياكم بهدي كتابه وبسنة نبيه ﷺ، أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم الجليل لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

[1] أخرجه أحمد (9290، 9536)، وأبو داود في الطب (3904)، والترمذي في الطهارة (135)، والنسائي في الكبرى (9017)، وابن ماجه في الطهارة (339)، والدارمي (1136)، وابن الجارود (107)، والحاكم (8/1)، وقال الترمذي: "ضعف محمد - يعني: البخاري - هذا الحديث من قبل إسناده"، ونقل المناوي في الفيض (24/6) تضعيف البغوي وابن سيد الناس والذهبي لهذا الحديث، ووافقهم على ذلك، وله شاهد من حديث جابر أخرجه البزار (9045- كشف الأستار)، وجوّده المنذري في الترغيب (619/3)، وقال الهيثمي في المجمع (117/5): "رجاله رجال الصحيح خلا عقبه بن سنان وهو ضعيف"، وصححه الألباني في غاية المرام (285).

[2] أخرجه أحمد (156/4)، وصححه الحاكم (219/4)، وقال المنذري في الترغيب (203/4): "ورواة أحمد ثقات"، ومثله قال الهيثمي في المجمع (103/5)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (492).

الحمد لله الحَكَم العَدل اللطيف الخبير، أحمده سبحانه له الدنيا والآخرة وإليه المصير، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن نبينا محمداً عبده ورسوله البشير النذير والسراج المنير، اللهم صل وسلم على عبدك ورسولك سيدنا ونبينا محمد، وعلى آله وصحبه.

أما بعد: فيا عباد الله، إن عِظَمَ الخسارة التي يُمنَى بها من يحفظ فروعاً ويضيق أصولاً. لا سيما إذا كانت هذه الأصول توحيداً وإيماناً. خليقاً بأن يحمل أولي الألباب على كمال العناية بهذا الأمر وشدّة الحذر من التردّي في وهدهته وتمام الحرص على التجافي عن كل سبيل يُفضي إليه وكلّ حاملٍ يحمل عليه، وأيُّ خسارة. يا عباد الله. أعظم من أن يمحط عمل العامل أو يُنتقص من أجره أو يضاعف في وزره.

ألا فاتقوا الله عباد الله، وحذار من تضييع الأصول، واعرفوا لكلّ شيء قدره، وأنزلوه منزلته تستقيم أموركم، وتطب حياتكم، وتحظوا برضوان ربكم.

وصلوا وسلموا على خاتم النبيين وإمام المتقين ورحمة الله للعالمين، فقد أمرتم بذلك في الكتاب المبين حيث قال الرب الكريم قولاً كريماً: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:56].

اللهم صل وسلم على عبدك ورسولك سيدنا ونبينا محمد، وارض اللهم عن خلفائه الأربعة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وعن سائر الآل والصحابة والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وعنا معهم بعفوك وكرمك وإحسانك يا أكرم الأكرمين.
اللهم أعز الإسلام والمسلمين...